

الباب الأول

فكرة الخلود قديماً وحديثاً

obeikandi.com

الفصل الأول

فكرة الخلود قديماً

تدور فكرة الخلود سواء قديماً أم حديثاً حول أن جوهر الإنسان ليس هو الجسد الذى يوارى التراب - بل إنه شعلة من نور الله خالدة لا تبلى ولا تتحلل قد حلت فى جسده وكونت جسداً روحياً آخر له عالمه الخاص به (الأثير أو البرزخ) الذى سينطلق إليه بعد الموت وتركه جسده الفيزيقي - وأن دخول هذا الجسد إلى عالم الأثير (العالم النجمي) له قانون عام مرتبط بالعمل الدنيوى وينطبق على الجميع. وجميع الكتب الدينية سواء السماوية منها أم غيرها لو قرأت بعين العلم لوجدت فيها البراهين على ذلك ولقد عقب علماء الآثار أن الرسومات البدائية التى وجدت على التماثيل التى تمثل وجود الإنسان الأول توضح تماماً أنه كان يعتقد فى خلود واع. وحتى القبائل المتوحشة البعيدة عن المدنية تأبى أن تقول: إن شخصية الإنسان التى تميز واحداً عن الآخر تفتى بالموت - وأنه على رغم الترهات البالغة البدائية نجد دائماً نفس القصة من أن الموت ليس نهاية الكائن الواعى.

وكان القدماء يخلطون بين كلمتى النفس والروح. فكان الكلدانيون يعتقدون فى خلود النفس وفى فكرة القيامة بالجسد. وكان المجوس يعلمون بأن الذين يحيون حياه طيبة سوف يذهبون إلى مملكة أورم زد المضيئة أما المخطئون وشر الناس فسوف يذهبون إلى مملكة الظلام - وهذه العقيدة نادى بها زورا ستر (زرا دشت) ومازال يدين بها أهل إيران (فارس) وتتخلص فى أن العنصر الروحى الذى لا يموت خلق قبل الجسد ويتحد كلاهما عند الولادة ويفترقان عند الموت - والنفس التى تأتى من عالم الروح تتمتع بمواهب عدة مثل المعرفة والحكمة والتميز والفكر والعمل والإرادة الحرة والوعى الدينى.. والوحى وعند قيام الأموات عندما يتجدد كل شئ يبدأ الخلق من جديد ويكون للنفوس أجساد جديدة حتى يمكنها أن تتذوق فى الحياة المقبلة سعادة لا حدود لها.

كان المغول يعتقدون أن الجزء غير المادى من الإنسان هو شعاعة خالدة وأن هذا هو القاعدة الأساسية فى الحياة. وكان يعتقدون أن نفس الإنسان قبل أن تظهر اتخذت أشكالاً أولاً فى النبات ثم فى الحيوانات. وبعد أن دخلت الإنسان وهى ترنو دائماً إلى

الارتفاع والتقدم وليس لها أن تعود فتخلط .

أما اليونانيون القدامى فقد كانوا يعتقدون أن نفس الميت سوف توجد في صورة نصف واعية تكون فيها معتمدة على الوسائل الفيزيكية لراحتها.

وعلى هذا الأساس كانت رائحة دم الحيوانات أو اللحم المطبوخ من الحيوانات لدى الأبطال الأموات ، ولذا كانت تقام ولائم الدفن. فعندها تشعل النار فوق مذبح الإله زيوس بيد عميد العائلة كان المفروض أن نفوس الأجداد تبلّغ بأن تأتي لتناول نصيبها من الطعام المقدم لترضية شهواتها الشيطانية.

وقد نادى أرسطو بنفس مبدأ قدماء المصريين فكان يقول: إن الأرواح الثلاثية الغازية والشاعرة والعاقلة تعمل معاً في الجسد أثناء الحياة الأرضية وبعد الموت لا يبقى في حالة كاملة إلا الروح الأخيرة، التي هي الصورة الأولى للجسم.

وكان سقراط من قبله يرى أن النفس غير قابلة للزوال والانحلال وأنها جوهر لا تدركه الحواس وأنها تلتحق بعد الموت بوجود مثلها - حيث إنها كانت موجودة قبل أن يخلق جسدها وتمتعة بالمعارف الإلهية التي نسيها بولادتها في الدنيا ويمكنها استرجاعها بالتذكر والتعلم.

كما قال: إن لكل إنسان روحاً تحفظه وتوحى إليه - وعندما سأله تلميذه كرتياس عن المكان الذي يريدون أن يدفنوه فيه ، أجاب سقراط في لهجة حادة عاتبة لأنهم فشلوا (أى تلاميذه) في فهم تعاليمه المستمرة عن حياة الروح فقال:

[إنكم لن تدفنوني وإنما تدفنون جسدي وأنا سوف أكون في مكان آخر]

وفي قول آخر [أيضاً تريدون لأنني سوف أكون في مكان آخر]

وبعد ما جاء فيثانمورس العالم اليوناني أخذ يرتب هذه المعتقدات فقال: إنه بالإضافة إلى وجود الجسم الطبيعي للإنسان يوجد عنصر روحى، وهو عنصر له صفة الاتحاد ومحاط بنفس نصف مادية. وهذه النفس في مظهرها تشبه الجسد وهي ضرورية لحياته، فالموت إذن هو انسحاب النفس من الجسد وفي عملية انسحابها تأخذ معها الروح أو العنصر غير المادى وتذهب إلى مكان في الفضاء يناسب مستوى الأعمال الطيبة التي عملتها وهي في الجسد.

ووصف بطليموس هذا بقوله: إن النفس شقت طريقها إلى أعلى مصحوبة بالروح إلى الطبقات الإلهية في حين أن النفس الخبيثة هوت إلى المناطق المادية المظلمة.

أما الرومان فلم يختلفوا كثيراً عن الصينيين في عبادتهم لأجدادهم وكان يعتقد

البعض منهم بأن الحيوان إذا كان طيباً فسوف يرتقى إلى الهيئة الإنسانية وكانوا مثل غيرهم الأقدمين يعتبرون الروح ما هي إلا نفس إذا خرج خرجت هي معه. فكان الروماني إذا ما اقترب موعد موته جاءوا له بصديق له لكي يستمع له وهو يحتضر ويقول «خذ روحي من فمي» وكان شيشرون الخطيب الروماني الشهير يعتقد في الخلود فهو في نظره نظرية عامة أدركها الإنسان منذ ظهوره على الأرض. وكان يقول:

[أليست غالبية السماوات مملوءة بالبشر، هذه الآلهة نفسها نشأت هنا في الدنيا ثم صعدت إلى السماء].

وكان الصينيون من أوائل المعتقدين في الخلود، وكان مُشرِّعهم الأكبر كونفوشيوس قبل الميلاد بحوالى ستة قرون يقول: إن للروح جسداً غير الجسد العادي لا تؤثر فيه مؤثرات الفناء وإن الروح تحيط بنا ولها القدرة على الظهور لنا متجسدة.

وهناك كتاب قديم يسمى (كتاب التبت للموتى) لا تختلف معلوماته كثيراً عن معلومات العائدين من الموت التي درست حالتهم علمياً أخيراً - فمدونٌ فيه أن روح الميت تغادر جسده وبعدئذ يجد نفسه في فراغ لا يقوم فيه سوى ضميره، وقد يسمع ضوضاء مخدرة أو مقلقة مثل الرعد أو الريح ويجد نفسه في وسط ضبابي. وسوف يندهش لوجوده خارج جسده الفيزيقي وهو يسمع ويرى أقاربه وأصدقاءه يبكون على جسده ويعدونهُ للدفن وعندما يحاول الاتصال بهم فهم لا يسمعونهُ أو يرونهُ - إذ إنه لم يدرك بعد أنه قد مات فهو مثل الذي في دوامه سائلاً نفسه هل هو ميت أو لا.

وعندما يتحقق من موته فهو يختار أين يذهب وماذا سيفعل شاعراً بندم كبير بالنسبة لموقفه - وسوف يظل فترة بجوار الأماكن التي تعود عليها وهو في جسمه الفيزيقي - وسوف يشعر أن له جسماً مضيئاً يبدو أنه ليس من مادة فيزيقية لذا فهو يستطيع أن يمر خلال الصخور والحوائط وحتى الجبال دون أن يشعر بمقاومة ما. والمسفر لديه لحظي. فأينما أراد الذهاب وجد نفسه هناك في الحال.. وإذا كان في حياته الفيزيقية أعمى أو أصم أو مشلولاً فسوف يندهش أن يجد نفسه في جسمه «المضيء» مالكاً لكل حواسه وكل قوى جسمه الفيزيقي قد أعيدت وتقوت. ويقابل كائنات لها نفس الجسم المضيء وقد يلاقى ما يسمى «الضوء الصافي أو النقي».

وينصح أهل التبت هذا المقبل على الموت بقاء هذا الضوء بالمحبة والعطف تجاه الآخرين.

ويبين الكتاب أن هناك مرآة من نوع ما يرى فيها الميت كل أعماله من طيب أو سيئ ويساعده على رؤية صورها الكائنات التي تقرر مصيره.
وكان الهنود من القدم يعتقدون أن الروح الإنسانية نفخة إلهية. وأن الإنسان إذا مات تكتسى الروح بجسد نوراني شفاف لا تدركه أبصار الأحياء وتنتقل إلى الملاء الأعلى:

وجاء فى كتاب « الموتى » أن الهدف عند قدماء المصريين من تحنيط جثثهم هو اعتقادهم فى عودة الروح إليها وإدارتها من جديد - وأن الموت ما هو إلا نوم أو هو عبارة عن احتجاب للحياة تنزع بعده النفس لتحيا فى نوع جديد من الحياة.. فمثلاً جاء فى كتاب [ديانة قدماء المصريين] لجاروسلاف سيدنى ما يلى :

(.. تبرز الشمس فى الصباح وتسطع فى النهار وتختفى فى المساء فى الأفق الغربى ولكن هذا الاختفاء شىء ظاهرى ووقتى لأن الشمس لم تتوقف عن الحياة..).

ولقد كوّن المصريون عقيدة خلاصتها أن حياة الإنسان توازى إلى حد كبير ما يحدث للشمس. فهو يولد ويعيش على الأرض ويموت.. وسوف يولد مرة ثانية فى لحظة ما مثلما تولد الشمس ثانية.. وقد يتضح لنا أن هذا الرأى قد لا يختلف كثيراً عن ذكر القرآن لدورة الإنسان فى ملكوت الله جل وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ عَلَنَهُ فَقَدَرَهُ ۖ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۖ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقَرَّهُ ۖ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة عبس - الآيات ١٩ : ٢٢].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۖ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الروم - الآية ١٩].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ اللَّهُ يَدْوَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الروم - الآية ١١].

وجاء فى كتاب الموتى أيضاً أن قدماء المصريين سموا جهة الغرب «عنخ» أى «الحياة» لأنهم اعتقدوا أن الشمس والبشر يذهبون إلى الغرب لكى «يستريحوا فى الحياة» وسموها بعد ذلك «عنخ حوتيب» التى تعنى «الذى يحيا ويستريح» كما أن الكفن نفسه سمي «تيب عنخ» أى «سيد الحياة».

وامتد وجه الشبه بين الشمس والإنسان إلى أبعد من ذلك، فقد اعتقدوا أن الإنسان بعد موته سوف يكون جزءاً من مادة «إله الشمس» ويصبح «روحاً عالية من رع» ونجد تشابهاً

أيضاً مع ما جاء فى القرآن عن نهاية رحلة النفس والرجوع إلى الله عز وجل:
 بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِيلِي فِي
 عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفجر - الآيات ٢٧ : ٣٠].
 بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَنفِقَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ تُرْجِعُ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴿١١﴾﴾
 [سورة السجدة - الآية ١١].

وقد اعتاد قدماء المصريين على نسبة الروح إلى مكانها فى السماء ويقصدون بذلك عالم
 الروح وقال بنفس الشئ معظم القدماء والمحدثين. فنجد مثلاً فى كتاب الموتى أيضاً أيام
 الأسرة الخامسة فى مصر القديمة ما يلى:
 (.. أن رع يستقبل النفس فى السماء والجسد فى الأرض).
 وفى الأسرة السادسة يقال للميت:
 (.. إن جوهرك فى السماء وجسدك فى الأرض).
 وفى الأسر المتأخرة كان يقال:

(.. أن نفسك فى السماء أمام رع وقرينك (الجسم النجمى) يتناول استحقاقه
 من الآلهة).

وجسمك الروحى كريم بين أرواح النار وجسمك المادى يرقد فى العالم السفلى (القبر)
 كما كانوا يرون أن الموت عبارة عن انتقال من حال إلى حال وأن الروح تكتسى بجسد
 جديد خالد بعد موت الجسد المادى.

وجاء فى كتاب الموتى (ص ٢٢٦) دعاء ميت مصرى قديم يبين الاعتقاد فى العيش
 بعد الموت :-

(تحياتى إليك يا من تنير القمر والذى منه تبعث ضياءك. إنك تأتى مع مجاميع خلقك
 وتتجول حولنا - اجعلنى ارتفع. ودعنى أدخل فى زمرة الأرواح. ودع العالم السفلى يفتح
 أمامى، لقد أتيت فى هذا اليوم وأصبحت خو (khu) (أى كائناً مضيئاً) فلتدعنى الكائنات
 المضيئة أعش وتعمل على إحضار أعوانى أمام الأمراء الحكام الإلهيين وهم فى حالة من
 التعاسة وعندئذ سوف تستريح روح أمى فى سلام وأقف على قدمى ويكون لى عصا ذهبية
 فى يدى التى بها سوف أضرب على أطراف أعدائى وأعيش...).

واعتقد قدماء المصريين فى وجود عدة أجسام للإنسان وأن الروح تتألف من مجموعة
 عناصر نفسية تفترق بموت صاحبها وهى:

١ - الخات - khat وهى الجسم الفيزيقي القابل للتحليل والفناء والذي يمكن حفظه فقط بالتحنيط.

٢ - كا - KA والتي يترجمها البعض بالجسم النجمي والبعض (بالدويل) وبعضهم بالقرين وهى شخصية جامدة لها صفات الشخص ولو أن مكانها هو القبر عادة حيث الجسد إلا أن لها الحرية فى التجول والسكن فى أى تمثال له. كما كانوا يعتقدون أنها تأكل وتشرب ولهذا وضعت القرابين فى المقابر.

٣ - با - BA أو نفس القلب وهى مرتبطة بطريقة ما مع الكا وتسكن معها فى القبر وتأخذ نصيبها من القرابين ولو أن فى بعض مواضع كتاب الموتى مدون بأنها تسكن مع رع أو أوزوريس فى السماء. ويبدو أنهم اعتقدوا أيضاً أن من صفاتها أن تأخذ جسداً مادياً أو غير مادى وفى الحالة الأولى تكون على هيئة صقر له رأس إنسان.

٤ - أب - AB أو القلب واعتقدوا أنه هو مصدر الحياة الحيوانية والخير والشر فى الإنسان وكان حفظه ضرورة كبيرة إذ إنه هو العنصر الهام فى عملية الحساب إذ يوزن لمعرفة العمل الطيب والخبيث.

٥ - خايبيت - KHAIBIT أو الظل وهو كبير العلاقة بالبا أو النفس فهو مثل الكا يتغذى على القرابين وله كيانه المنفصل عن الجسد والتجول حيث شاء.

٦ - خو - KHU أو النفس الروحية وهى تذكر مع البا أو نفس القلب. وكانت تعتبر على أنها مخلوق أثيرى أو (النفس) التى لا تموت تحت أى ظروف وهى تسكن فى (الساو) SAHU أى الجسم الروحى.

٧ - سخيم - SEKHEM أو القوة الموحدة للشخصية ومظهر الطاقة الحيوية فى الإنسان. وهى تسكن السماء مع الروح أو (الكوس).

٨ - رن - REN أو الاسم وكانوا يعتقدون أن الاسم يجب أن يحفظ فإذا نسى فقد صاحبه وكان يكتب داخل القبر دائماً.

٩ - ساو - SAHU أو الجسم الروحى وهو مسكن النفس. وينطلق من الجسم المادى بواسطة الصلوات عليه والطقوس التى أديت عند القبر أو خلافه بواسطة كهنة رسميين والجسم الروحى خالد وفيه تظل الصفات العقلية والروحية للجسم الطبيعى.

هذا ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن هذه الأسماء لم تنشأ كلها فى عصر واحد إذ من قراءة كتاب الموتى نفسه لا يعثر القارئ على مصدر لهذا التقسيم بل يجد تضارباً أحياناً مما يشير إلى أن قدماء المصريين كانوا يخلطون أحياناً فى فهمهم لبعض وظائف هذه الأسماء.

وكان قدماء اليهود يعتقدون فى نوع ما من السماء التى يسكنها الله الذى يصب غضبه على الناس ما عداهم أى اليهود شعبه المختار الأمين.
ولم يرد فى التوراه أى شىء عن الحياة الأخرى إلا فى ثلاثة مواضع من المزامير فى مزمور ١٦ - ١٠ نجد (لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية).

وفى مزمور ٤٩ - ١٥ (إنما الله يفدى نفسى من يد الهاوية لأنه سوف يأخذنى).

وفى مزمور ٧٣ - ٢٤ (برأيك تهدينى وبعد إلى مجد تأخذنى).

ونجد ذكرها على لسان الأنبياء مرتين فقط:

فى هوشع ١٣ - ١٤: (من يد الهاوية أفديهم من الموت أخلصهم).

وفى دانيال ١٢ - ١٢: (وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون. هؤلاء إلى

الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للآزدرء الأبدى).

وكانوا يعتقدون أن روح الميت تعود إلى الله أما نفسه فتذهب إلى القبر أو عالم الظلام

(تحيا أمواتك تقوم الجثث. استيقظوا ترنموا يا سكان التراب. لأن طلك ظل أعشاب

والأرض تسقط الأخبلة) أشعيا ١٩/٢٦.

وكان أيوب يقول متحسراً: (والإنسان يضطجع ولا يقوم).

(إن مات رجل أفحيحاً؟) أيوب ١٤ - ١٢، ١٤.

كذلك جاء فى الجامعة:

(لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون أما الموتى فلا يعلمون شيئاً.. ومحبتهم وبغضهم

وحسدكم هلكت من زمان) ٩ - ٥.

(لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها)

٩ - ١٠.

ونرى شيئاً من الأمل فى حياة آخرة إذ يقول:

(أما أنا فقد علمت أن ولى حى والآخرة على الأرض يقوم. وبعد أن يفنى جلدى هذا

وبدون جسدى أرى الله) أيوب ١٩ - ٢٤.

والخلاصة أنه لا يوجد نص صريح عن الحياة الأخرى التى تبدو قليلة الأهمية فى

كتاب التوراة المطول بالمقارنة بالأديان الأخرى.

أما الإنجيل فيتبين منه بوضوح وجود حياة أخرى أو كما قال بولس فى رسالته إلى

أهل كورنثوس (١٥ - ٣٥ - ٥٢):

(لكن يقول قائل كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون. يا غيبي الذي تزرعه لا يحيا إن لم يمت والذي تزرعه لست تزرع الجسم الذي سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حفظة أو أحد البواقي ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد. ولكل واحد من البذور جسمه. ليس كل جسد جسداً واحداً بل للناس جسد واحد وللبهائم جسد آخر وللسمك آخر وللطيور آخر وأجسام سماوية وأجسام أرضية. لكن مجد السماوات شيئ. مجد الشمس شيء ومجد القمر آخر ومجد النجوم آخر. لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد.

هكذا أيضاً قيامة الأموات. يزرع في فساد ويقام في عدم فساد. يزرع في هوان ويقام في مجد. يزرع في ضعف ويقام في قوة. يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً. يوجد جسم حيوانى ويوجد جسم روحانى. هكذا مكتوب أيضاً. صار آدم الإنسان الأول نفساً حية وآدم الأخير روحاً محيياً. لكن ليس الروحانى أولاً بل الحيوانى. وبعد ذلك الروحانى. الإنسان الأول من الأرض ترابى، الإنسان الثانى الرب من السماء. كما هو الترابى هكذا الترابيون أيضاً. وكما هو السماوى هكذا السماويون أيضاً وكما لبسنا صورة الترابى سنلبس أيضاً صورة السماوى. فأقول هذا أيها الأخوة إن لحمنا ودمنا لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد. هو ذا سر أقوله لكم لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير. فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد. ونحن نتغير لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس فساد. وهذا المائت يلبس عدم موت فحينئذ تصير الكلمة المكتوبة ابتلع الموت إلى غلبة. أين شوكتك يا موت).

أما فيما يتعلق بالإسلام فلقد أعطت الثقافة الإسلامية العالم وخاصة غربه بدايات المنهج التجريبي وأسس الاحتكام إلى العقل وفكرة التقدم.

وكان للحضارة العربية الإسلامية الدور الرئيسى فى بناء الحضارة الإنسانية العالمية، والتواصل الحضارى بحضارات العالم القديم - لقد عنى الإسلام بما يتميز به من إعجاز عقلى وشمول معجز لم يترك صغيرة أو كبيرة تتعلق بكافة جوانب الحياة والإنسان إلا وقد عنى بها عناية متفردة وأؤكد على ذلك بعنايته بثنائية المادة والروح وإقامة التوازن بينهما فى حياة الإنسان فهو لا يتجاهل احتياجات الإنسان المادية ولذلك لا يدعو إلى الرهينة - كما لا يعمل على تحقيق مطالبه المادية وحاجاته الأساسية فحسب بل يغرس فيه أساساً القيم الروحية وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة القصص - الآية ٧٧].

واستكمالاً لهذا المبدأ تتكامل الحياة الدنيا مع الآخرة مصداقاً لقوله تعالى :
﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَغُولُ رِيكًا أَيْسًا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢٠١)
[سورة البقرة - الآية ٢٠١].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٢) [سورة
الإسراء - الآية ٧٢].

وبهذه الصورة يجتمع للفعل الواحد جزءان أحدهما دنيوي يتولاه ولى الأمر وثانيهما
أخروي. فإن استطاع الإفلات من الجزء الدنيوي استحال الإفلات من الجزء الأخروي
- وتحقيقاً للتوازن بين الجانبين الروحي والمادي يجمع الإسلام بين العقل والإيمان فى
وحدة متناسقة، فالعلم ليس مجرد خادم مطيع للإيمان على خلاف ما حدث فى أوروبا
فى العصور الوسطى، والإيمان ليس عدواً للعلم - على خلاف ما ينادى به كل من الفكر
الشيوعى والعلمانى، فأيات القرآن الكريم قاطعة فى حث الإنسان على التزود الدائم بالعلم
وإعمال عقله بفكره فى كشف أسرار الكون بالدراسة - والأحاديث الشريفة تجعل من طلب
العلم فريضة، واستعمال الأساليب العلمية خير وسيلة لدعم الإيمان.

وغير خاف على أى عالم أو باحث أو مستشرق الآن أن من إعجازات الإسلام التى
تثبت للإنسانية يوماً بعد يوم أن أخطر الحقائق التى كشف عنها العلم التجريبي حديثاً
ما يسمى الآن بالباراسيكولوجى أو «العالم الروحي الحديث» والإثبات الموضوعى لوجود
جانب باراسيكولوجى للإنسان وخلود هذا الجانب وبقائه بعد فناء الجسد مع كل ما
يترتب على ذلك من واجبات يفرضها علينا فهمنا لحقائق الحياة وما بعد الحياة وما يتعلق
بذلك من ظواهر تسمى بالظواهر الروحانية، قد أكدها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً
- وإذا كان القرآن الكريم وهو الملهم لكافة الأنشطة والمواقف السلوكية للفرد المسلم وإذا
كان القرآن الكريم من أوله إلى آخره قد تناول الحياة الآخرة ووصفها ونكتفى بما يرد
ذكره لملاءمة ما تقدم ذكره:

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا
فِي صُلْبِ الْأَتَى فَصَلَّى عَلَيْهَا أَلْمُوتَ وَيُرْسِلُ الْآخِرَةَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤٢) [سورة الزمر - الآية ٤٢].

فإذا ما قابلنا هذه الآية بمعنى النوم والموت فى ضوء نتائج العلم الروحي الحديث
باعتبارهما طرحاً روحياً لا يختلفان إلا فى انقطاع ما سماه هذا العلم بالحبل الأثيرى

(أى الحبل الذى يربط بين الجسد والنفس عند خروجها منه إذا ما ظل الإنسان على قيد الحياة وينقطع إذا ما مات) وإذا ما استحضرننا بعد ذلك معنى الإمساك والإرسال لاتضح لنا جلياً تلك اللمة الغذة فى كلمات قليلة تطوى أعظم وأخطر حقائق ما توصل إليه هذا العلم وهذه السمة هى بالحقيقة طابع كل الجمل القرآنية.. فإذا جنئت أيضاً معى إلى الآيات التالية :

﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الواقعة - الآيات ٨٤ : ٨٥].

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة المؤمنون - الآيات ٩٩ : ١٠٠].

﴿ وَهُوَ الظَّاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الأنعام - الآية ٦١].

وقابلت ما تستخلصه من هذه الآيات من أن رحمة الله بعباده لا تتركهم عند الموت لأنفسهم وأن المولى عز وجل يرسل رسله للمساعدة ومد يد العون لتوفى هذه الأنفس عند الموت - ونقلها إلى حياة أخرى هى حياة البرزخ وأن هذه الحياة ستكون درجاتها والنعيم فيها أو الشقاء طبقاً لأعمالهم فى الحياة الدنيا ثم نظرت إلى ما انتهى إليه العلم الروحى الحديث من وصف للحظات الانتقال وحضور الملائكة والأرواح للمساعدة.. الخ لما وجدت تناقضاً.

أما فى الحديث الشريف فتعال بنا نقف عند حديث من أخطر الأحاديث وأكثرها دلالة على حقيقة الوجود الإنسانى على الأرض فى قوله ﷺ : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) وهذا ما وقفت عنده كثيراً وأجمعت عليه ما تسمى «البحوث الروحية الحديثة» وأحدث ما توصل إليه علم الباراسيكولوجى أو ما يسمى «علم الروح الحديث» من حقائق إذ كون الإنسان فى حقيقة وجوده على الأرض أشبه بالنائم، أدى ارتباطه بالمادة إلى حجب الكثير من الحقائق عن إدراكه وحين يخلع عنه رداء المادة بالموت كل حواسه الروحية وتفتتح فيرى الأمور على حقيقتها.

وسبحان من أنزل هذا الكلام:

﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصُرْتُمُ الْيَوْمَ حَيْدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة ق - الآية ٢٢].

وفى الصحيحين عنه رضي الله عنه من وجوه متعددة، أنه أمر بقتلى بدر من الكفار فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم، وناداهم بأسمائهم يافلان أبن فلان ويافلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربي حقاً، فقال له عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا، فقال: **والذى بعثنى بالحق، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جواب.**

وثبت عنه رضي الله عنه «أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه» (رواه البخارى فى باب الجنائز - ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائى عن أنس).
وفى النسائى وغيره من حديث معقل بن يسار المزنى عن النبى صلى الله عليه وسلم إنه قال: (اقرأوا يس عند موتاكم) وقوله صلى الله عليه وسلم: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه فى الجنائز وأحمد فى سنده ٣/٣.
ورواه أبو داود فى سننه أن النبى صلى الله عليه وسلم حضر جنازة رجل فلما دفن قال: «سلوا لأخيكم التثبيت، فإنه الآن يسأل».

قال أبو بكر عبد الله بن محمد عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب: باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:

- (حدثنا) محمد بن عوف، حدثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان، عن زيد بن أسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: قال رسول صلى الله عليه وسلم:
(ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا أستأنس به ورد عليه حتى يقوم).
- (حدثنا) خالد بن خدّاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن أبى التياح قال: «كان مطرف يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أولج (سارليلا) قال وسمعت أبا التياح يقول: بلغنا أنه كان ينور له فى سوطه فأقبل ليلة، حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره، فقالوا: هذا مطرف يأتى يوم الجمعة، قلت وتعلمون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير، قلت وما يقولون؟ قالوا يقولون سلام سلام.

- (حدثنى) محمد، حدثنى يحيى بن بسطام حدثنى عثمان بن سورة الطفاوى قال: وكانت أمة من العابدات، وكان يقال لها راهبة قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخرى وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى، لا تخذلىنى

عند الموت ولا توحشنى فى قبرى، فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها: يا أماه كيف أنت؟ قالت: أى بنى إن للموت لكربة شديدة، وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود نفقرش فيه الريحان ونتوسد فيه السندس والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها آلك حاجة؟ قالت: نعم - قلت وما هى؟ قالت لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك. يقال لى يا راهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر من حولى من الأموات.

- (حدثنى) محمد بن الحسين، حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر، حدثنى مسمع حدثنى رجل من آل عاصم الجحدري قال: رأيت عاصم الجحدري فى منامى بعد موته بسنتين فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى. قلت: فأين أنت؟ قال: أنا فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم. قال: قلت أجسادكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات بليت الأجسام وإنما تتلقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال نعم، نعلم بها عشية الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال: قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها: قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته.

وسأروى لك عزيزى القارئ أيضاً أكثر من قصة على سبيل المثال بما يؤكد لك حرص الإسلام على عظمة المعانى الروحية وحقائقها فهو الدين الوحيد الذى أجاز وصية الميت بعد موته واليك القصة:

(فى معركة اليمامة خرج قيس بن شماس رضى الله عنه فى جيش خالد بن الوليد لقتال مسيلمة، فقاتل قيس قتالاً عظيماً حتى استشهد، وكان عليه يومها درع نفيسة فمر به رجل من المسلمين فأخذها عنه - وبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه قيس فى منامه فقال له: «أوصيك بوصية، وإياك أن تقول هذا حلم فتضيّعه: إنى لما استشهدت أمس مر بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستن بطوله فأت خالداً ومره أن يبعث إلى درعى فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ فقل له إن على من الدين كذا وكذا وأخبره» فبعث خالد بن الوليد إلى الدرع فأتى بها وحدث الخليفة أبا بكر رضى الله عنه برؤياه فأجاز وصيته، وكانت أول وصية فى الإسلام - بل فى جميع الأديان - أجيّزت لرجل بعد موته.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى النفس فى القرآن الكريم بالدخول، والخروج، والقبض، والتوفى، والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها، وغلقتها عنها، فقال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقَرَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابُ آلِهُونَ يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام - الآية ٩٣].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الفجر].

وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد.

وقال تعالى: ﴿ وَتَقِيرُ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الشمس]

فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن فى قوله تعالى:

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الإنفطار].

فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه، بل سوى بدنه كالقلب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقلب لما هو موضوع له. ومن هنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها، فإنها تتأثر وتنتقل من البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبيث من طيب النفس وخبيثها، وتكتسب النفس الطيب والخبيث من طيب البدن وخبيثه، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثيراً من أحدهما الآخر النفس والبدن ولهذا يقال لها عند المفارقة: اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث.

وقال الله تعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الزمر - الآية ٤٢].

فوصفها بالتوفى، والإمساك، والإرسال، نما وصفها بالدخول، والخروج، والرجوع، والتسوية. ومن أحاديث الحمد الذكية الثابتة عن الرسول ﷺ قوله عند الاستيقاظ:

(الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا) أخرجه أحمد فى مسنده.

(الحمد لله الذى عافانى فى جسدى ورد على روحى ، وأذن لى بذكره) الترمذى

١١٤/٣ .

كما أخبر ﷺ : (أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه عن أم سلمة .

وأخبر (أن الملك يقبضها ، فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كانتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض) رواه أحمد فى مسنده ٢٨٧ / ٤ .

وجدير بالذكر هنا أن الأعراض لا ريح لها ، ولا تمسك ، ولا تؤخذ من يد إلى يد . وأخبر النبى ﷺ أيضاً : (أنها تصعد إلى السماء ، ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، وأنها تفتح لها أبواب السماء ، فيصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل فتوقف بين يده ، ويأمر بكتابة اسمه فى ديوان أهل عليين ، أو ديوان أهل سجين . ثم ترد إلى الأرض ، وأن روح الكافر تطرح طرْحاً ، وأنها تدخل مع البدن فى القبر للسؤال) رواه أحمد فى مسنده .

كما أخبر النبى ﷺ : (بأن نسمة المؤمن - نفسه المطمئنة - طائر يعلق - بضم اللام أى تأكل - فى شجر الجنة حتى يردّها الله إلى جسدها) رواه أحمد فى مسنده والنسائي فى باب الجنائز .

وقد ذكر محمد بن حزم فى كتابه الملل والنحل :

(وأما من ظن أن الميت يحيا فى قبره قبل يوم القيامة فخطأ . إن الآيات التى ذكرناها تمنع من ذلك) يعنى قوله تعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَنَّاتُنَّ وَأَحْيَيْتَنَا أَنْتَ إِنَّا نَعْتَرِفُ بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (سورة غافر - الآية ١١) .

وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة البقرة - الآية ٢٨) .

قال : ولو كان الميت يحيا فى قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاث ، وأحيانا ثلاث وهذا باطل ، وخلاف القرآن . إلا من أحياه الله تعالى آية لنبى من الأنبياء :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حُدَّרَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَعْيَاهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ [سورة البقرة - الآية ٢٤٣].

وكذلك قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾ [سورة الزمر - الآية ٤٢].

فصح نص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى الجسد إلا إلى الأجل المسمى. وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الأرواح ليلة الإسراء والمعراج.. كما أخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى. إنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا، وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فصح أن الخطاب والسمع لأرواحهم فقط بلا شك، وأما الجسد فلا حس له، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ ﴿٢٢﴾ [سورة فاطر - الآية ٢٢].

فنفى السمع عن في القبور، وهى الأجساد «الفيزيائية» بلا شك ولا يشك مسلم أن الذى نفى الله عز وجل عنه السمع هو الذى أثبت له رسول الله ﷺ السمع .
ويقول الإمام شمس الدين أبى عبد الله بن القيم الجوزية فى كتابه القيم «الروح»:
(وأما قول من قال: الأرواح على أفنية قبورها، فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة، وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتاً، أو لها إشراف على قبورها وهى فى مقرها فهذا حق ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور).

ويقول: (ولقد بينا أن عرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار لا يدل على أن الروح فى القبر ولا على فنائه دائماً من جميع الوجوه، بل لها إشراف واتصال بالقبر وفنائه، وذلك القدر منها بعرض عليه مقعد، فإن للروح شأناً آخر فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين، ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى. وإنما يغلط أكثر الناس فى هذا الموضوع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون فى غيره، وهذا

غلط محض ، بل الروح تكون فوق السموات فى أعلى عليين وترم إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه وسمع كلامه . وقد رأى رسول الله ﷺ موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره ورآه فى السماء السادسة أو السابعة ، فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كالمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرفها فى السماء.. وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباقي وتسجد لله بين العرش ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان.. وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السموات السبع وتقف بين يدي الله فتسجد له ويقضى فيها قضائه ويربها الملك ما أعد الله لها فى الجنة ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه).

ويقول: (وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست فى الجنة وأنها على أفنية القبور، فهذا سيد ولد آدم الذى روحه فى أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ﷺ يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه ، وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء فى الجنة ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علمنا ﷺ أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد وقد ثبت أن أرواحهم فى الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم، ولا يضيق عقلك عن كون الروح فى الملاء الأعلى تسرح فى الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها وتدنو حتى ترد عليه السلام، فللروح شأن آخر غير شأن البدن، وهذا جبريل صلوات الله وسلامه عليه رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح منها جناحان ترسد بهما ما بين المشرق والمغرب (حديث صحيح رواه أحمد والبخارى ومسلم) وكان من النبي ﷺ حتى يضع ركبته بين ركبتيه ويديه على فخديه (رواه مسلم والترمذى وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب) وما أظنك يتسع بظنك أنه كان حينئذ فى الملاء الأعلى فوق السموات حيث هو مستقره وقد دنا من النبي ﷺ هذا الدنو، فإن التصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلته لمعرفة، ومن لم يتسع لهذا فهو أضيق أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهي إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماوات على عرشه لا يكون فوقه شيء البتة بل هو العلى على كل شيء وعلوه من لوازم ذاته . وكذلك دنوه عشية يوم عرفه من أهل الموقف ، وكذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدّها وبسطها وهبأها لما يراد منها . وكذلك مجيئه يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد كما قال النبي ﷺ : فأصبح ربك يطوف فى الأرض وقد خلعت عليه البلاد . هذا وهو فوق سماواته على عرشه).

ويقول: (ومما ينبغي أن يعلم أن ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر، فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها، وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاناة لها، فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفوذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت وفارقت واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل شأنها روحاً عليية زكية كبيرة ذات همة عالية؟! فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر. وقد تواترت الرؤيا في أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد واثنين والعدد القليل ونحو ذلك. وكم رُئى النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر فى النوم وقد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعدتهم وضعف المؤمنين وقتلهم).

ويقول: (وقال عكرمة ومجاهد: إذا نام الإنسان فإن له سبباً يجرى فيه الروح وأصله فى الجسد فتبلغ حيث شاء الله ما دام ذاهباً، فالإنسان نائم فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان وكان بمنزلة شعاع الشمس الذى هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس. وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال:

إن الروح يمتد من منخر الإنسان ومركبه، وأصله فى بدنه، فلو خرج الروح بالكلية لمات كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة، ألا ترى أن مركب النار فى الفتيلة وضوءها وشعاعها يملأ البيت؟ فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان فى منامه حتى تأتى السماء، وتجول فى البلدان وتلتقى مع أرواح الموتى، فإذا أراه الملك الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه، وكان المرئى (أى الشخص النائم) فى اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً لا يلتفت فى يقظته إلى شىء فى الباطل رجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق مما أراه الله عز وجل على حسب خلقه، وإن كان خفيفاً ترقا يحب الباطل والنظر إليه فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر رجعت روحه إليه، فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما تقف فى يقظته، فكذلك لا يؤدي إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل. فلا يمكن لمعبد أن يعبد له وقد خلط الحق بالباطل.

وهذا من أحسن الكلام وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالأرواح وأحكامها. وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شيء له ثم يمر بباطل ولهو من غناء، أو شبيهه، أو زور، أو غيره، فيصغى إليه ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه، فيتخبط عليه ذلك الذى سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل. فهكذا شأن الأرواح عند النوم، وأما بعد المفارقة فإنها تعذب بتلك الاعتقادات الباطلة التى كانت حظها حال اتصالها بالبدن، ويضاف إلى ذلك عذابها بتلك الإرادات والشهوات التى حيل بينها وبينها ويضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه الله لها ولبدنها من الأعمال التى اشتربت معه فيها وهذه هى العيشة الضنك فى البرزخ والزاد الذى تزود به إليه.

(.. والروح الزكية العلوية المحقة التى لا تحب الباطل ولا تألفه بصد ذلك كله تنعم بتلك الاعتقادات الصحية والعلوم والمعارف التى تلتقتها من مشكاة النبوة وتلك الإرادات والهمم الزكية وينشئ الله سبحانه وتعالى لها من أعمالها نعيماً يتعمها به فى البرزخ فتصير لها روضة من رياض الجنة..).

وقال ابن القيم: (وقالت طائفة وهم أهل الأثر إن الروح غير النفس.. والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح. والنفس صورة العبد والشهرة والبلاء معجون فيها. ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه. فالنفس لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها والروح تدعو للآخرة وتؤثرها. وجعلت الهوى تبعاً للنفس والشيطان تبع النفس والهوى والملك مع العقل والروح.. وقالت جماعة إن الأرواح على صور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان).

وقول ابن القيم عن الروح: (إنها جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس. وهو جسم نورانى علوى خفيف متحرك ينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء فى الورد وسريان الدهن فى الزيتون والنار فى الفحم.. وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت من قبل تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح).

هذا وقد تكلم المسلمون الأوائل أيضاً عن الروح فمثلاً:

ذهب ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَاللَّهُ لَمَّ تَمَّتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر -

الآية ٤٢].

إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق في ابن آدم شيئين هما النفس والروح وبينهما مثل شعاع الشمس. فالنفس هي العقل والتميز والروح هي التي تكون بها الحياة. وعند النوم تخرج النفس وحدها وتبقى الروح، ولا يخرجان معاً إلا عند الموت «عبد الظاهر خليفة: الحياة البرزخية ١٩٨٣».

ورأى ابن عباس قريب الشبه برأى علماء الغرب الحديثين. إلا أنهم لا يرون ثمة فاصلاً بين الروح والنفس. فالروح spirit عند علماء الغرب ثلاثية التكوين: لأنها عبارة عن جسم أثيري Per spirit وهذا الجسم يحمل شعلة مقدسة هي التي تهب الحياة، كما أنه يحمل العقل ويطلقون عليه النفس Soul وهو يمثل قوى الحس والإدراك في الكائن الحي.

ويقول العالم الفيلسوف ابن سينا:

(اعلم أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن بل هو باق لبقاء خالقه تعالى، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن لأنه محرك البدن ومدبره ومتصرف فيه. والبدن منفصل عنه تابع له. فإذا لم يضر مفارقتة عن الأبدان وجوده.. ثم إن الإنسان في نومه يدرى الأشياء ويسمعها. بل يدرك الغيب في المنامات الصادقة بحيث لا يتيسر له في اليقظة. فهذا برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن بل هو يضعف بمقارنة البدن ويقوى بتعطله. فإذا مات البدن وخرّب تخلص جوهر النفس عن حبس البدن).

ويقول الشيخ طنطاوى جوهرى:

(إن دين الإسلام يبين أن الروح كانت قبل خلق الأجسام ويتجلى ذلك في الآية: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن نَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف - الآية ١٧٢].

ويرى عدم الأخذ بقول ابن سينا وأضرابه من الفلاسفة الذين قالوا: إن الآية مؤولة وأن الأرواح خلقت مع الأجسام. ويرى أنه لعل الأرواح كانت في غلاف نوراني لا يرى من مادة الأثير التي تدق على الأذهان فضلاً عن العيان. وأنه لعل للأرواح هناك معارف وعلوم لا ندرجها وأن هذا ما لا طاقة لنا بعلمه).

وجاء في كتاب (بشرى الكتيب بلقاء الحبيب) تأليف الإمام جلال الدين السيوطي :
(الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف إنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقة
وحيلولة بينهما وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار).
وقال ابن مسكويه عن الموت : (إذا كان الخوف من جهل الموت. فالموت ليس بشيء
أكثر من ترك النفس استعمال آلتها..).
وقال عن النفس : (النفس جوهر غير جسماني وليست عرضاً. وأنها غير قابلة
للفساد).

وقال عبد الكريم الجيلاني في تعريف للموت :
(الموت عبارة عن خمود النار الغريزية التي يكون بها سبب الحياة في دار الدنيا. وتلك
الحياة عبارة عن نظر الأرواح إلى نفسها في الهياكل الصورية).
ثم يقول : (إن سبب هذه الحياة هو الحرارة الغريزية).
وبأخذ برأى قدماء الإغريق في أن : (كل واحد من النار والماء والهواء والتراب مركب
من العناصر الأربعة التي هي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة) فالموت هو ذهاب هذه
الحرارة الغريزية من الهيكل الحيواني بما يصادها من البرودة الغريزية هذا الأمر نصيب
الجسم. وأما نصيب الروح فإن حياة هيكلها هو مدة نظرها إلى الهيكل بعين الاتحاد.
وموته هو ارتفاع ذلك النظر من الهيكل إلى نفسها فتبقى بكليتها في عالمها لكن على هيئة
الهيكل الذي كان لها تتجسد على شكله في عالم الأرواح فيحكم لها بالوجود معها لذلك
التجسد).

وقال محيي الدين بن عربي عن مجيء الموت وخلص الجوهر :
(فأخلى البلد وفرق بين الروح والجسد ورد كل شيء إلى أصله وجمع بينه وبين أقرابه
وأهله فألحق الجسم مع أترابه وعرج بالروح المشبه في الإضاءة بيوح فألحقه بالروح
المضاف إليه).

ويقول الإمام الغزالي عن الروح :

(إنها اللطيفة الربانية التي تحل في الجسم وتقيم فيه).
(الروح ليس بجسم ولا عرض في الجسم بل هو مقدس عن هذه العوارض).
(إنها لما تعشقت بالجسم وتعشقت بها الجسم كانت ناظرة إليه ما دام معتدلاً في صحته.
فإذا سقم وحصل فيها الأثم بسببه أخذت في رفع نظرها عنه إلى عالمها الروحي).

ويرى الغزالي خطأً في قول الفلاسفة (أن الأجساد لا تحشر وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية. ولقد صدقوا في إثبات الروحانية فإنها كائنة أيضاً ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية وكفروا بالشرعية فيما نطقوا به). وهو لا يركن إلى رأى ثابت فهو يعد له كلما أنتج كتاباً جديداً. ففي كتابه «تهافت الفلاسفة» يعود فيقول: (إن البعث معناه إيجاد لمثل ما كان لا ليعين ما كان، وأما جمع جميع الأجزاء ليس ضرورياً حتى يحتج باستحالته). ومن هذا القول يتبين أنه اقترب كثيراً من «علم الروح الحديث» فقله: «مثل ما كان» يعنى في الروحية الحديثة الجسم النجمى المشابه للجسم الفيزيقي.

ويقول الإمام الغزالي أيضاً:

(جعل الموت مخلصاً للأتقياء وموعداً فى حقهم للقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسًا ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء).

وعن سبب الموت يقول الغزالي (إنه خروج الجسد عن طاعة الروح لأن الأعضاء آلات للروح والموت عبارة عن استعصاء هذه الأعضاء). وبخلاف الإمام الغزالي يرى الإمام ابن رشد أن الحياة والحشر سوف تكون روحانية لأن الجسم قد ذهب إلى أشياء أخرى: (مثال ذلك أن إنساناً مات واستحال جسمه إلى التراب واستحال ذلك التراب إلى نبات فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات فكان منه منى حين تولد منه إنسان آخر).

ويقول الإمام الأصفهاني عن الموت: إنه انتقال من دار إلى دار فهو وإن كان فى الظاهر فناء واضمحلال فهو فى الحقيقة ولادة ثانية: (ولولا أن هذا الموت لم يكمل الإنسان. فالموت إذن ضرورة فى كمال الإنسانية. ولكون الموت سبباً للانتقال من حال إلى حال أشرف وأرفع سماه الله توفياً وإمساكاً عنده).

ومما سبق يتضح لنا من هذه الآراء المتعددة أنها تتلخص فى الرأى الذى ينادى به علماء الروح المحدثون. فتعريف الروح كما جاء فى «دائرة معارف العلم الروحى»:

- الجسم الإلهى.
- الجوهر الحيوى.
- العنصر الفعال الفطرى فى الحياة.

- نسكن الجسم النجمي الذي هو النفس وهذه الأوصاف كلها لم تعد - كما نرى - تعاريف المسلمين الأوائل للروح بل أيضاً العلم الروحي الحديث مما يمكننا القول بأنه بعد طول الجهد قد فسر الماء بالماء.

وأيضاً ما يجب قوله والتأكيد عليه أن الروح قبس من نور الله وما زال سرها غامضاً وإن كان من الممكن التحدث عن مظاهرها وآثارها فينا.

كما أنه لا يفوتنا هنا أن نؤكد على أن القضية الإيمانية في الإسلام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالغيب بل إن الإيمان لا يتحقق إلا إذا كان غيبياً من خصائص الروح يقره القلب.

وحيث إن ذلك الاهتمام بالجانب الروحي في الإسلام من دلائل عظمة الرسالة المحمدية للإنسانية جمعاء لذا فقد يلزم أن نعرض لذلك ولو بشيء من الإيجاز فيما يلي :

الإيمان يكون غيبياً:

لا يتحقق الإيمان في الإسلام إلا إذا كان غيبياً لقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِيتُونَ الصَّلَاةَ وَمَا تَرَفَقَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [سورة البقرة]

وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [سورة يس].

ويعتبر الإيمان غيبياً إذا لم يكن مستنداً إلى حاسة من الحواس الخمسة. أما اشتراط الإدراك الحسي للتصديق فإنه يعد انتقاصاً من التكليف لا يتحقق به الإيمان كشأن قوم موسى الذين قال فيهم الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [سورة البقرة].

ومن قبل الإدراك الحسي الذي لا يعتد بعده بالإيمان ظهور علامات الساعة الكبرى. فقد روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

(لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها) رواه البخارى ومسلم.

ثم قرأ قوله الله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ

رَبِّكَ لَا يَتَعَنَّ نَفْسًا إِيْمَانَهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْتَظِرُونَ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ [سورة الأنعام].

وليس يقصد بالإيمان الغيبي الإيمان بكل الأمور الغيبية بل لكل ما يتعين الإيمان به وحسبما جاء في كتاب الله وسنة رسوله الكريم كالإيمان بوحدانية الله وأحديته وصفاته وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والبعث بعد الموت والجنة والنار والقدر خيره وشره.. لأن لفظ الإيمان على إطلاقه لا ينصرف إلا للأمور التي ذكرناها والتي بها يحصل الأمن النفسى والاستقرار غير أن القلب أحياناً لا يستيقن ويطمئن إلا إذا كان الإيمان قائماً على دليل عقلى. وعلى إية حال فإن الأدلة العقلية التي ترد عن غير طريق الحواس لا تتعارض مع كون الإيمان غيبياً.

الإيمان والتصديق بالقلب :

لا يتحقق الإيمان بالشىء عند جمهور الفقهاء إلا إذا كان القلب عارفاً مضمونه ومقراً به ومستيقناً منه. أما الإقرار باللسان أو إتيان صالح الأعمال فلا يتوافر به الإيمان إذا كان القلب منكراً لمضمون الإقرار أو جاحداً لقوله تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة البقرة].

وليس كل ما يصدقه القلب يتوفر به الإيمان، بل لا بد أن ينصب التصديق على أمور يتحقق بها الأمن ويطمئن إليها القلب، لأن لفظ الإيمان أساساً مشتق من الأمن. وعلى ذلك فالاعتقاد فى الطاغوت أو الشرك بالله لا يعد إيماناً.. وإنما يتحقق الإيمان من التصديق بالله والاعتقاد فى وحدانيته وما أمر به ونهى عنه وهو ما يطمئن إليه القلب حقيقه ويقره.. وهذا هو المعنى المستفاد من قوله وتعالى :

﴿يَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْكِفِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المائدة].

وقوله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة النحل].

لذا فإنه من المؤكد الواضح جلياً أن معنى الإيمان فى الإسلام ينصرف لكل ما يتعين الإيمان به وحسبما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله الكريم يستلزم الإيمان التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر لقوله تعالى :

﴿عَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَقْرُبُ بَيْتَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِمْ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة البقرة].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ
فِي الْبُيُوتِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة البقرة].

فإنكار واحدة من هذه ينتفى معها الإيمان. والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب
الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [سورة النساء].

وكقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَقْرَبَ مَا يَدْعُونَ إِلَّا لِيُجِزُوا إِلَهُهُمَّ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة النحل].

وقد روى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن
الإيمان فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله وتؤمن بالجنة والنار وتؤمن بالبعث
بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال الرجل: فإذا فعلت فأنا مؤمن؟ قال ﷺ: «نعم»
حديث صحيح أخرجه البخارى فى صحيحه ومسلم فى صحيحه.

وفى هذا الحديث أضاف ﷺ الإيمان بالقدر خيره وشره إلى ما سبق ولا يحول دون توفر
الإيمان أن يكون الشخص غير عالم بجميع صفات الله، أو يكون جاهلاً بوجود بعض الكتب
أو بعض المرسلين - إذ يكفيه التسليم بها والحكم بصحتها طالما أنها فى كتاب الله ومن عند
الله وفى سنة رسوله ﷺ (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) يؤيد ذلك قوله
عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ
يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة آل عمران].

فالراسخون فى العلم يؤمنون بما جاء بالكتاب ولو أنهم لا يعلمون المتشابه منه لأن
المولى عز وجل قد حض ذاته بالعلم به.

ومن لوازم الإيمان أن تجنى أعمال المؤمن موافقة لعقيدته وغير متعارضة معها،

والأفعال التي تتفق مع إيماننا قد أشار إليها رسولنا الكريم ﷺ فيما روى عن أبي هريرة مرفوعاً: (الإيمان بضع وسبعون شعبة - أو بضع وستون - أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) رواه كل من البخارى ومسلم فى صحيحه.

كما أن تقوى الله من أهم خواص الإيمان ومن مقتضى هذه التقوى الالتزام بالشعب التي عينها هذا الحديث - غير أن ترك بعض هذه الشعب لا ينفي الإيمان وإنما ينفية ارتكاب الفواحش عند ارتكابها - فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يزننى الزانى حين يزننى وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) رواه مسلم فى صحيحه.

وزاد همام فى روايته أن الرسول ﷺ أضاف فى آخر هذا الحديث قوله: (ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن، فإياكم وإياكم) أخرجه مسلم فى صحيحه. والغول بضم الغين هو الخيانة.

وغير خاف أن الإسلام والإيمان يتفقان فى أن كليهما يقتضى التصديق بالقلب كما يستلزم أفعال الجوارح. غير أن ثمة فرقاً هاماً بينهما بدليل قوله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَآءًا قَلٌّ لَمْ نُوْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الحجرات].

وقد روى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى.. وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام».

فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً).

قال: صدقت. قال فجبنا له يسأله ويصدقه. قال فأخبرنى عن الإيمان. قال ﷺ: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره).

قال: صدقت. قال فأخبرنى عن الإحسان. قال ﷺ:

(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

ثم انطلق. ثم قال رسول الله ﷺ: (يا عمر أتدرى من السائل؟).

قلت الله ورسوله أعلم. قال ﷺ : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) أخرجه مسلم فى صحيحه .

فالإسلام يخاطب الإنسان باعتباره مخلوقاً من روح وجسد فمن ناحية أوجب عليه الإيمان أى تصديق الروح بعموم ما أنزله الله على ملائكته ورسله من كتب وبكل ما قدره وقضى به . أما الجسد الترابى الذى ينزع بطبيعته إلى الشر فقد أولاه الله من أساليب التربية الدينية ما يكفل الحد من شهواته وأطماعه ففرض عليه الأركان الخمسة للإسلام ، التى وردت فى الحديث المذكور ، وكلها من أفعال الجوارح . وهذه العبادات تفرض على المسلم الامتناع عن المحظورات لقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ﴾ [سورة العنكبوت] .

وقوله ﷺ (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده) أخرجه كل من مسلم والبخارى فى صحيحه .

وعلى ذلك يمكن القول أن الإيمان كعقيدة تستوجب تصديق القلب تصديقاً أشمل وأعمق مما يقتضيه الإسلام ، بدليل قوله تبارك وتعالى للأعراب : ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلْنَاكُمْ وَمَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات] .

فمن حيث العمومية نجد أن الطاعة والعبادات التى أوجبها الإسلام تدخل ضمن شعب الإيمان ، وأفضلها شهادة ألا إله إلا الله . أما من حيث عمق العقيدة فقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه - أو قال لجاره.. ما يحب لنفسه) أخرجه كل من البخارى ومسلم فى صحيحه .

وفى رواية أخرى عن أنس ابن مالك قوله ﷺ : (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله . وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) أخرجه كل من البخارى ومسلم فى صحيحه .

الإيمان من خصائص الروح :

تؤكد الأدلة من الكتاب والسنة على أهمية القلب لأنه هو الذى يتم به التصديق اللازم لتوافر الإيمان - ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

أُولَئِكَ كَفَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَدَخَلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿سورة المجادلة﴾.

وكقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْتِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحج]. كما ورد عن الرسول ﷺ أنه قال:

(إن الحلال بين وإن الحرام بين.. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) أخرجه مسلم في صحيحه. وهنا يجوز التساؤل: كيف يحصل التصديق أو الإنكار بالقلب وهو لا يعدو أن يكون مضغة تتولى ضخ الدم إلى سائر أعضاء الجسم؟

ومن الغريب أن كثيراً من العلماء والفقهاء والمفسرين لم يعنوا بالإجابة عن هذا السؤال، كما لو كان من البديهيات التي لا تستحق الرد عليها. غير أن قلة منهم مثل الأماميين الطبري وفخر الدين الرازي قد تعرضوا لهذا الموضوع في اقتضاب شديد فقالوا: إن القلب وعاء للعلم ومحل له وذلك وهم يصدد تفسير قوله سبحانه وتعالى:

﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة البقرة].

ومحل العلم بطبيعة الحال هو العقل. الذي به يتحقق الفهم والإدراك. فإذا قلنا: إن القلب محل العلم كان مؤدى ذلك أن القلب يؤدي ذات المهمة التي يباشرها العقل. ويتأكد هذا المعنى بمزيد من الوضوح في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنفَامِ بَلْ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْعَفْلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف].

فالمعنى الواضح من هذه الآية هو أن الأصل في القلوب أن تكون مدركة، وأن تكون الأعين مبصرة، والأذان قادرة على السمع.

ولكن إن صح أن للقلوب مقرا للوعى في نظر الدين، فما هو رأى العلم في هذا الموضوع؟

والواقع أنه ليس في وسع الطب أو سائر العلوم الفيزيقية أن تثبت أن القلب يؤدي وظيفة العقل لأن العقل صفة في الروح وليست في البدن. كما أن علوم ما وراء المادة «الميتافيزيقا» متخلفة في الدول العربية، بسبب معارضة كثير من رجال الدين لها وأحجامهم عنها.

كما أن علماء الروح فى الغرب لم يعرضوا لهذا الموضوع لعدم إلمامهم بعلوم القرآن. والثابت عندهم أن العقل يباشر مهامه على المستوى المادى عن طريق المخ. فما هى العلة من ذكر القلب فى الآيات السابق الإشارة إليها وعدم ذكر المخ؟

يقول العلامة النيسابورى فى الإجابة عن هذا التساؤل:

(إن القلب يراد به تارة اللحم الصنوبرى المودع فى التجويف الأيسر من الصدر؛ وهو محل الروح الحيوانى الذى هو منشأ الحس والحركة، وينبعث منه الدم إلى سائر الأعضاء بواسطة الأوردة والشرايين. ويراد به تارة اللطيفة الربانية التى يكون بها الإنسان إنساناً، وبها يستعد لامتثال الأوامر والنواهى والقيام بواجب التكليف ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (سورة ق). وهى من عالم الأمر الذى لا يتوقف وجوده على مادة ومدة بعد إرادة موجودة).

ومفاد ما سبق أن القلب يراد به فى القرآن الكريم - إلى جانب معناه المادى - أنه تلك اللطيفة الربانية أى الروح - ولا يمكن بطبيعة الحال التسليم بأن القلب والروح شىء واحد، للاختلاف البين فى طبيعة كل منهما، وأظهر ذلك أن الروح تغادر الجسد عن الموت بينما يظل القلب فى موضعه ساكناً لا يتحرك. لذلك فلا مناص من التسليم بأن القلب هو مركز الروح ذاتها، وهذا يتفق مع رأى القائل بأن القلب محل العقل، لأن العقل خاصية من خصائص الروح (وهو ما أشار إليه الإمام الغزالى، من رسالة إلى ملك شاه ص: ٣٦). ومن جماع ما تقدم تنتهى إلى أن الروح مقرها الصدر عامة والقلب على وجه الخصوص ومن هذا المنطق كان مستودع النوايا والمعلومات كله فى الصدر. وقد تأكد هذا المعنى فى آيات عديدة منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ إِنْ تَحْفَؤْا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ يُبْدِؤْهُ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران).

ونظراً لأن الإيمان كعقيدة وتصديق بالعقل يعد من خصائص الروح لا البدن، لذلك لزم الإشارة إلى الروح عند التنويه عنه. غير أن الثابت، أنه لغاية لا يعلمها إلا الله، لم يرد ذكر الروح باعتبارها اللطيفة الربانية إلا فى ثلاثة مواضع هى حالتى نفخ الروح فى آدم وعيسى بن مريم عليهم السلام. وللرد على سؤال اليهود عن ماهية الروح فى قوله جل وعلا: ﴿وَسَلُّوْا نَفْسَكَ عَلَى الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِىْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (سورة الاسراء). وفى غير هذه الحالات استعيض عن الروح بذكر مقرها وهو القلب أو الصدر.